

SIATS Journals

Journal of Arabic Language Specialized Research (JALSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk

e-ISSN: 2289-8468



مجلة اللغة العربية للأبحاث التخصصية

المجلد 1، العدد 3، تموز/ يوليو 2015م.

THE RHETORICAL REFERENCES AND THEIR IMPLICATIONS IN THE KORAN

الإشارات البلاغيّة ودلالاتها في القرآن الكريم

أ. د. نصرالدين إبراهيم أحمد حسين

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

ماليزيا

1436هـ - 2015م

ARTICLE INFO
Article history:
Received 18/2/2015
Received in revised form 20/3/2015
Accepted 1/4/2015
Available online 15/4/2015

Keywords:

الملخص

يعتبر هذا البحث دراسة للإشارات البلاغيّة ودلالاتها في القرآن الكريم، وركّز خاصة على التراكيب والتعابير التي تمسّ الفنون البلاغيّة، للوقوف على الدلالات والمعاني واللطائف التي تحملها بين طيّاتها. وتتجلى أهميته من خلال فتح أعين المتدبرين في نصوص التنزيل وتوجيهها إلى عظمة هذا الحقل الدلالي الواسع المتمثل في البيان القرآني. ثم بيان لطائف الأثواب البيانيّة التي تكمن في النص القرآني المعجز. وبيان الفروق الجمالية الدقيقة التي ما كان لقارئ القرآن أن يتذوقها لولا ورودها في ذلك الثوب البياني الأخّاذ. وهو بذلك يجلي السبق القرآني في كيفية استعمال تقنيات التعبير وتوظيفها في الخطاب البلاغي واللغوي والأدبي. كما يوضح ما تميّز به القرآن الكريم من أساليب بلاغية متنوعة، وتصاوير رائعة فاقت طوق البشر. ومشكلة البحث تتعلق بكيفية فهم تلك الإشارات البلاغيّة، والدلالات الخفيّة التي تحيط بالأسلوب القرآني. ويهدف البحث أن يخدم المسلم وغير المسلم في فهم الخطاب القرآني، ويساعد طلبة العلم – على اختلاف تخصصاتهم- في كيفية التعامل مع النص القرآني، كما يساعد في استنباط المعاني الخفيّة من النص القرآني؛ شارحاً ومحللاً. واستخدم فيه المنهج الاستقرائيّ، والمنهج التحليلي؛ الذي يقوم بإحصاء نماذج مختارة من القرآن الكريم، ثم تحليلها، ومناقشتها، واستنباط الإشارات البلاغيّة منها.

المقدمة

فاق القرآن الكريم طوق البشر في دقّة الأسلوب، وجمال التعبير، وبلاغة الكلم، حتى سجد له من يعتبرون أنفسهم الغاية في الفصاحة، والحجة في الإفهام. إن ما يميّز الخطاب في القرآن الكريم هو تلك الإشارات البلاغيّة، ودلالاتها التي حواها النص القرآني، وهي التي كست ذلك الأسلوب روعة وجمالاً وبهاء، حتى اهتزت له تلك النفوس التي حباها الله فصاحة التعبير، ورهافة الحس، وبداهة الذهن. فقد أدرك هؤلاء "ما لهذا البيان القرآني من إعجاز لا يملك أي عربي يجيد حسّ لغته، وذوقها الأصيل، سليقة وطبعاً، إلا أن يسلّم بأنه ليس من قول البشر"[1]. وسوف نقدّم في هذا البحث صورا من تلك الإشارات.

المبحث الأول: التقديم والتأخير

إن لغة العرب تزخر بفنون بلاغيّة متنوعة، ولعل هذه الفنون هي التي أسدت إلى لغة الضاد هذا التفرّد بين لغات العالم، ومن هذه الفنون بلاغة التقديم التي أضفت جمالا رائعا في تناول النص الأدبي وتذوّقه. إن تقديم النص في لغتنا العربية له أهمية بالغة الأثر، فليس من شأن العربي –صاحب البيان واللسان– أن يقدم كلاماً على نيّة التأخير، أو يؤخر كلاماً على نيّة التقديم حشو أو عبثاً، بل لهذا كله أسبابه الموجبة التي تخرج الكلام العربي في أبهى صوره؛ فصاحة وبياناً. ومن أجل هذا حرص العرب على سلامة المعنى، وفصاحة اللفظ، ودقّة التعبير.

عاب الإمام عبد القاهر الجرجاني على النحاة، عدم تعمقهم في معرفة أسرار الكلام ودقائقه، حيث لا ينظرون في الحذف والتكرار، والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلا من حيث الأهمية وعدمها، والطرافة وموضع الندرة في الكلام. كما يرى أن من الخطأ أن يقسّم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيكون مفيدا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعضه الأخر، وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذه قوافيه، ولذاك سجعه[2].

---

[1] الإعجاز البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف – القاهرة – 1971م (ص 34).

[2] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة – بيروت – 1419هـ – 1998م الطبعة الثانية، تصحيح أصله: الأستاذ الإمام محمد عبده والأستاذ الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي (ص 87).

المطلب الأول: همزة الاستفهام

يذكر الإمام عبد القاهر أمثله مختلفة مع همزة الاستفهام؛ تارة يليها الاسم، ويكشف عما بينها من أسرار بلاغية، فإذا قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت باسم، كان الشك في الفاعل، من هو، وكان التردد فيه. وهذا الذي ذكر قائم مع الهمزة إذا كانت للتقرير، فإذا قلت: أأنت فعلت ذلك؟ كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل، يبين ذلك قوله سبحانه وتعالى عن قوم (النمروذ): ((**قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**))[3] فهم لا يريدون أن يقرّ لهم بأن تكسير الأصنام قد كان، ولكنهم يريدون الاعتراف بأن ذلك كان منه هو. وقال هو ﷺ في الجواب: ((**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**))[4]. ولو كان التقدير بالفعل لكان الجواب: فعلتُ أو لم أفعل. ومعلوم أن الألفاظ تتبع المعاني، والمعاني تتقدم على الألفاظ، وإنما يكون ذلك لعلل وأسباب[5].

المطلب الثاني: التقدم بالزمان

كالأبعد من الآن مع الأقرب إليه، ومنه تقدم الوالد على الولد؛ فإن الوالد وجد في زمان لم يكن فيه الولد موجودا، فما كان من المعاني متقدما على غيره بأحد هذه الاعتبارات، أو بأكثرها، كان في العبارة كذلك.

ومن التقدم بالزمان قوله تعالى: ((**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**))[6]؛ فإن الظلمة سابقة على النور في الإحساس، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور المعنوي، والطفل في بطن أمّه أول ما يشعر به هو الظلام، حتى يخرج إلى دنيا الواقع، إلى دنيا النور، ومنه قوله تعالى: ((**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**))[7]، وحاسة السمع تنمو وتتطور لدى الطفل قبل حاسة البصر.

كما نلحظ في قوله تعالى: ((**وَالْفَجْرِ • وَلَيَالٍ عَشْرٍ • وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ • وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ • هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ • أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ • وَثَمُودَ**

(3) سورة الأنبياء، من الآية: [62].

(4) سورة الأنبياء، من الآية: [63].

(5) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص88.

(6) سورة الأنعام، من الآية: [1].

(7) سورة النحل، من الآية: [78].

الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي • وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ))[8] فالترتيب الزمني واضح في هذه الآيات، بحيث لا يخفى على كل ذي بال، فقوم عاد، سبقوا قوم ثمود، وقوم ثمود سبقوا قوم فرعون، ولذلك جاء هذا الترتيب متناسقا، ومتفقا مع الفترات التاريخية التي عاشتها هذه الأقوام، دون تقديم أو تأخير. وهذا يؤكد أن القرآن الكريم إنما هو وحي من عند الله سبحانه وتعالى، دقيق في ترتيبه وتسلسل أفكاره.

المطلب الثالث: التقديم بالرتبة

من ذلك قوله تعالى: ((**وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**))[9].

هذه مواضع تتفاضل فيها الدرجات والرتب، فتقديم الأنبياء واضح، فهم أصحاب الرسائل السماوية الذي اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لهذه المهام الصعبة العسيرة، والصديقون؛ هم أول من آمن بالرسل وصدّقوا الرسالات السماوية، ومنهم الشهداء، والشهداء هم الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الحق، كلمة الدين، والصالحون هم من صلحوا بتعاليم هؤلاء الأبرار، وتمسكوا بالصراط المستقيم، وعملوا على ابتغاء مرضات الله سبحانه وتعالى، وتجنب نواهيه، واستقاموا في حياتهم.

وكذلك قوله تعالى: ((**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**))[10]. فإن الذين يأتون رجالا "راجلا على قدميه" الغالب أن يكونوا من المكان القريب، أي يجاورون الكعبة بيت الله العتيق، والذين يأتون على الضامر "الدواب: الإبل والفرس ..." يأتون من المكان البعيد، ومن ثم تكون قيمة المجاورة للبيت الحرام، قيمة لا تبلغها قيمة.

المطلب الرابع: التقدم بالشرف

من التقدم بالشرف في قوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**))[11]. نلاحظ الجمع بين الأعلى والأسفل، فالوجه والرأس يحتويان على كل الحواس المهمة بالنسبة للإنسان، وهما مكانا تشريف وتقدير.

---

[8] سورة الفجر، من الآية: [1-10].

[9] سورة النساء، من الآية: [69].

[10] سورة الحج، من الآية: [27].

[11] سورة المائدة، من الآية: [6].

المطلب الخامس: التقديم للغلبة والكثرة

ومن ذلك قوله تعالى: ((**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**))[12]. قدم "الظالمين" وذلك لكثرتهم، ثم المقتصد ثم السابق. وكذلك قوله تعالى: ((**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**))[13]؛ لأن السرقة في الذكور أكثر، فالسجون تمتلئ بالرجال. وقدم في الزنا المرأة في قوله تعالى: ((**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**))[14]؛ لأن الزنا فيهن أكثر وأعمّ، والمرأة بما وهبها الله من جمال وأنوثة تجعلها موضعا للفتنة.

وأما قوله تعالى: ((**الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**))[15] فقال الزمخشري: "سيقت الآية التي قبلها لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي نشأت منها الخيانة، لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له، وتمكنه لم يطمع، ولم يتمكن، فلما كانت أصلا وأولا في ذلك بدأ بذكرها، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب، ومنه يبدأ الطلب"[16].

المبحث الثاني: بلاغة الذكر والحذف

لا تذكر كلمة في القرآن الكريم إلا إذا اقتضاها السياق، وتطلبها النظم، ولا تحذف كلمة في القرآن إلا وحذفها أبلغ وأنسب، وأكثر ترابطا في الأسلوب، وأحكم للصياغة الفنية المعجزة؛ لأن نظم القرآن –كما قلنا أكثر من مرة– أرفع أنماط الكلام، ومن ثم فلا حشو، ولا تطويل يفسد به المعنى، ويترتب عليه الملل، ولا اختصار تستغلق به الأفكار، ويعسر معه الفهم، بل لكل مقام مقال، ولكل موقف نمط عجيب من النظم، بحيث تتداعى الألفاظ تداعيا طبيعيا حسبما تتطلبه المعاني، وتقتضيه الأفكار.

بل وتنحدر في سهولة ويسر حتى تتماسك في مواضعها التي هيئت لها، فلذكر في الصياغة القرآنية، وللحذف

---

(12) سورة الفاطر، من الآية: [32].

(13) سورة المائدة، من الآية: [38].

(14) سورة النور، من الآية: [2].

(15) سورة النور، من الآية: [3].

(16) الكشاف، الزمخشري – القاهرة الطبعة الثانية (ج 3 ص 168).

مجاله هو الآخر، ووراء كل منهما من المعاني الإضافية ما يؤكد فكرة النظم القرآني، الذي يتعلق بمناط الإعجاز، فانظر إن شئت قوله تعالى: **((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ))**[17]، مما ذكر فيه المسند إليه أو المبتدأ، فإنك ترى أن اسم الجلالة قد ذكر في الجملة الثانية، ليستقر في النفس مرتبطا بخبره، وليفيد بتعريفه وتعريف الخبر بأنه مخصوص بأن يقصده الناس في حوائجهم، ويتطلعوا إليه في ملماتهم ونوازلهم، كما أن إعادة المسند إليه باللفظ الصريح دون الضمير يشعر بثبوت الخبر في النفس وتمكنه من مجامع الإنسان، بالإضافة إلى ذلك التناسق الموسيقي الذي يتضح في ذكر لفظ الجلالة، والذي يختل، لو استعضنا عنه بالضمير.

ومنه قوله عزّ وجلّ: **((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا))**[18] لم يقل: قل (هي) من أمر ربي، ولو قال ذلك لاختل النسق، ولكنه أعاد لفظ الروح صريحا بعد فعل القول، ليرتبط المبتدأ بخبره، ولتستقل الجملة، وهي في معرض الرد على الذين كانوا يكثرون من السؤال عن الروح، ويشغلون أنفسهم بالبحث فيما وراء الطبيعة، مما اختص به الله جلّ وعلا، فالجملة حينئذ بإيحائها تفيد بأن الروح بالذات من الأسرار المستغلقة على البشر، فعليهم أن يريحوا أنفسهم من عناء البحث عنها، ويتوجهوا بهممهم إلى ما تدركه طاقتهم البشرية. وما جدوى البحث في الروح؛ وقد كلّت عن الوصول إليها أفهام الفلاسفة، وعقول المفكرين؟ فالذكر هنا خير من الحذف؛ لأن الحذف معه يختل الأسلوب والاتفاق.

ومنه قوله تعالى: **((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى • قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى • قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى • فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى • قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى))**[19].

يذهب البلاغيون إلى أن ذكر المسند إليه هنا رغبة في إطالة الكلام، وتلذذا بتلك الإطالة، ومما جعل موسى يتحدث بما لم يسأل عنه فقال: ((أتوكا عليها ...))إلخ. وهذا في رأيي سبب غير مقنع. فالله سبحانه وتعالى يسأل سيدنا موسى عن شيء يعلمه بعلمه لا يحتاج إلى السؤال عنه؛ لأن الأمر سيكون فيما بعد موضع المعجزة، حيث تنقلب العصا إلى حيّة تسعى، فتتحول من أصلها كعصا إلى شيء خارج عن تكوينها بمشيئة الله سبحانه وتعالى. والتأكيد في خطاب سيدنا موسى واضح، أن هذه عصا وليست شيئا سحريّا، فصيغة التمليك واضحة في

(17) سورة الإخلاص، من الآية: [1-2].

(18) سورة الإسراء، من الآية: [85].

(19) سورة طه، من الآية: [17-21].

قوله: ((هي عصاي))، ثم ذكر المهام التي تقوم بها، يعني تأكيدا آخر من نوعه، أنها عصا عادية، ثم يطلب الله سبحانه وتعالى منه أن يلقيها على الأرض، حتى لا يفزع سيدنا موسى من العصا وهي تتحول بين يديه إلى حيّة، فالمشهد مفزع، يحتاج إلى ثبات واطمئنان، فيخاطبه ربّه مطمئنا إياه ((سنعيدها سيرتها الأولى))، إذن فالأمر ليست مجرد إطالة وتلذذ، فالقرآن الكريم كتاب دقيق في خطابه الأسلوبي والمعرفي.

وانظر بعد ذلك إلى جمال النسق: ((قال هي عصاي))، ولم يقل: (ما بيميني عصاي). ولا شك أن الآية أبلغ وأتم في حلاوة الإيجاز. فهي منسجمة مع النسق قبلها وبعدها، وذكر موسى صريحا في تلك الآيات مرتين؛ لأن المقام مقام ذعر وهلع، فهو محتاج إلى أن يطمئنه ربه بندائه باسمه الصريح الذي يشعره بأنه معه ولم يتنازل عنه، ولم يتركه نهبا للموقف العصيب الذي تحولت فيه العصا حيّة تلقف ما يأفكون.

يقول الإمام الزمخشري في الكشاف: "لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل، ملكه من الفزع والنفار ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف. وعن ابن عباس: انقلبت "ثعبان" ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر، فقال له ربه: ((خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى))، فهي أنشئت أول ما أنشئت عصا، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حيّة، فسنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها، ولك فيها المآرب التي عرفتها"[20].

وبتأمل قليل نلاحظ أن الله جلّ وعلا كان يعدّ موسى للذهاب إلى فرعون، وهو من هو في التسلط والجبروت والظلم، وموسى لم يتمرس بعد بمعجزاته من العصا، وضم يده إلى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى. فكرر ذكر اسمه في ثلاثة الأرباع الأولى من سورة طه ست عشرة مرة، وهي التي تنتهي عندها قصته مع فرعون مصر، فكان لابدّ من الذكر حتى تزول آثار الخوف، وتكسوه سمات الاطمئنان، ويقدم إلى فرعون الطاغية[21].

الحذف:

ومن الصور البلاغية الرائعة التي ذكرها الإمام عبد القاهر الجرجاني، وقد تضمنت كثيرا من دلالات الأسلوب الإعجازي وإشاراته في القرآن، قول الله تعالى: ((**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ • فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**))[22].

[20] الكشاف، الزمخشري (ج 2 ص 431) .

[21] فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فتحي عامر، المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة – القاهرة – 1975م (ص 188-189).

[22] سورة القصص، من الآية: [23-26].

في هذه الآيات "حذف مفعول به في أربعة مواضع؛ إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما. ثم أنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتي بالفعل مطلقا، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقيٌ، ومن المرأتين ذودٌ، وأنهما قالتا: لا يكون منّا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى ﵇ من بعد سقي، فأما ما كان من المسقي، أغنما أم إبلا أم غير ذلك؟ فخارج عن الغرض، وموهم خلافه ذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود. فأنت لا تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما تجد؛ لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه"[(23)] .

فالسقي من الناس، والذود من المرأتين، وقولهما: لا يكون منا سقي، وسقى موسى لهما، وحي لنا بالأفكار التالية:

أولا: بالزحام الشديد على موارد الماء.

ثانيا: على الحياء والضعف.

ثالثا: على الاحتشام والتريث والأناة حتى تحين الفرصة المناسبة.

رابعا: على الشهامة والمروءة ونبل النفس.

ولن تكون هذه الدلالات إلا إذا قصد بحذف المفعول إثبات الفعل في ذاته وفيما يستتبعه. إن القرآن كلام الله وحي السماء وبلاغته على الأرض، فاستعماله للعبارات في غاية من الدقّة. فالأعراب فرع المعنى وتصحّ الجملة بتمام المعنى، فالأفعال –كما نرى– متعدية وليست لازمة الفاعل ولكن بالرغم من ذلك حذف المفعول به؛ لأن ذكره لا يعبّر عن هذه الدلالات الخفيّة التي تكمن من وراء الأسلوب القرآني، ولا تجعل القارئ يفكر في ذلك الكم الهائل من الصور الشاخصة، والصفات المعنوية والمعاني الثواني وراء هذا التعبير القرآني.

فقد "جاء حذف المفعول في الآية الأولى إشعارا بالزحام الشديد، إذا قرنا هذا بما ذكر في الآية من كلمات توحي بذلك مثل: ((أمة من الناس)). أمّا عن دلالتي الحياء والضعف –في الموضع الثاني– فهما يستوحيان من إضافة الذود للمرأتين عن أغنامهما، والتفكر في ذلك بعمق، فالمرأة ليست كالرجل قوة ومتانة وجرأة، فالله خلقها لتكون هكذا، ولله في خلقه شؤون. أمّا عن دلالات الحذف في الموضع الثالث الدال على الاحتشام والتريث والأناة، فيكمن في التعليل الواضح اللائي جئن به، وهو عدم التسرع في السقي لوجود الرعاء، ثم الاعتذار عن

(23) دلائل الإعجاز، الجرجاني (ص 116-117).

وجودهما بحجة أن والدهما شيخ كبير لا يستطيع الحركة، وهذا عذر مقبول، وبرهان واضح على طهرهما واحتشامهما. أمّا في الموضع الأخير والذي يدل على الشهامة والمروءة ونبل النفس فهو يتجسد في القيام بالسقي دون أجر يدفع، والذهاب إلى الظل مباشرة دون أسئلة قد تدخل الحرج إلى قلب المرأتين"[24].

المبحث الثالث: الفاصلة والسجع والتوازن

ذكر الدكتور زكي مبارك في أن السجع، عندما يخاطب الوجدان والقلب في القرآن، يسلك طريقة العرب في العصر الجاهلي، فيقول: "ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سورا مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين، ولا ننسى أن الوثنية كانت دينا يؤمن به أهله في طاعة الخشوع، وكانت لهم طقوس في هياكلهم، وكانت تلك الطقوس تُؤدى على نحو قريب مما كان يفعله أهل الكتاب من النصارى واليهود، والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغتها الفنيّة مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات، الفرق بين الملتين يرجع إلى المعاني، ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال، ولو دخلت كنيسة في باريس، ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة، لتذكرت الصورة في مساجد القاهرة، ذلك بأن الديانات الثلاث الإسلام والنصرانية واليهودية ترجع إلى مهد واحد هو الجزيرة العربية. فاللون الديني واحد، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة، فلا تحسب أن القرآن غيّر مناهج الناس في يوم وليلة، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم إلى الله، وأن يروضهم على فكرة واحدة هي التوحيد. ومعنى هذا أن القرآن يسجع؛ لأن السجع كان فنا من فنون القول والدعاء عند الجاهلية، والصلوات بطبيعتها تحتاج إلى لون من الفن يتمثل في السجع؛ لأن فيه استجابة للموسيقى الوجدانية في قلوب المتبتلين"[25].

إذن السجع أو الفاصلة أو التوازن كان شيئا كائنا في الديانات السماوية التي هبطت في الجزيرة العربية، ولذا استقبلها العرب بارتياح وطمأنينة، حيث اخترقت حاجز الحس والوجدان لديهم، فتعاملوا معها كما يتعاملون مع شيء مألوف لديهم، ولكن بالطبع، طريقة السجع في القرآن الكريم وأدائه، يختلف عمّا عند هؤلاء، وذلك لاختلاف نوعيّة الخطاب الأسلوبي، والمعرفي للقرآن الكريم، فطريقة التوظيف تختلف، وهذا ما تميّز به القرآن الكريم عن غيره من ديانات سماوية.

---

[24] وجوه الإعجاز في الخطاب الأسلوبي والمعرفي للقرآن الكريم، نصرالدين إبراهيم أحمد، مركز البحوث، الجامعة الإسلاميّة العالميّة – ماليزيا – 2005م الطبعة الثانية (ص 121-122).

[25] النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة الأولى (ج 1 ص 65).

ونضرب بعض الأمثلة على كثرة السجع في القرآن، وأنه يأتي عفو الخاطر، وليس على حساب المعنى؛ لأن المعنى أصل في القرآن، والسجع شكل من أشكال التعبير يؤدي إلى المعنى المقصود، ومن ذلك قوله تعالى: ((**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ • مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ • وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ • فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**))(26).

فتبّت بمعنى هلكت، وهذا دعاء عليه. واليد تعني النفس، مثل قول الله سبحانه وتعالى: ((لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة))، وبعده إخبار بهلاكه. وليست كلمة (وتب)، زيادة اقتضتها الفاصلة، كما يذهب البعض، فالقرآن لا تجد زيادة فيه أو حشوا؛ لأنه كلام الله سبحانه وتعالى، القادر المصور البارع، فهذه اليد التي تعرضت لسيد المرسلين يجب أن تعاقب أولا على فعلتها الآثمة، حتى لا يلتفت النظر إلى معاقبة اليد فقط جاءت كلمة "وتب" للخروج من الخاص إلى العام؛ إذ ليس المقصود هنا هلاك اليد فقط بل يمتد ذلك إلى النفس كلها لما أرتكبته من آثام. إذا كلمة "وتب" ليست لتناسق العبارة من الجانب الموسيقي، بل فيها معاني إضافيّة. وكذلك كلمة "وما كسب"، المال عصب الحياة، ولكن ليس وحده، فأبو لهب يمتلك العبيد، والمكانة بين قومه، والسيادة، والجنود، والولد ... إلخ. ولذا جاءت هذه الكلمة لتظهر هذه الدلالات الخفية، فالأمر لا يتعلق بالمال وحده إذا. أمّا كلمة "ذات لهب"، فهي كلمة ليست زيادة أو حشوا، وذلك لأن النار الخامدة لا تحرق، إلا إذا ارتفع لهبها وتطاير شرارها.

ومن هنا نعلم، أن اللفظ والمعنى في القرآن الكريم يتكملان، فلا يطغى أحدهما على الآخر؛ لأن القرآن كلام الله الخالق البارئ المصور. ومن أمثلة ذلك قوله: ((**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا • وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا • وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا • وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا • وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا • وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا • وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا • قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**))(27). وكذلك قوله: ((**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ • وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي • وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ • الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ • فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ • فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ • إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**))(28).

وللأستاذ أحمد حسن الزيات رأي في ذلك، يقول: "رأيت معي أن تقطيع المنثور من الكلام جملا أو فقرا أو فواصل عمل بلاغي تقضيه حالة النفس وحركة الذهن، وطبيعة التنفس، وهذا التقطيع وإن نشأ في اللغة على

(26) سورة المسد، من الآية: [1-5]..

(27) سورة الشمس، من الآية: [1-10].

(28) سورة الفجر، من الآية: [6-14].

مقتضى الطبع له فلسفة وهندسة وموسيقى، هن عناوين علم البلاغة وبراهين فن البليغ. فالهندسة والموسيقى، ملاكهما التلاؤم بين أجزاء الفقر وفواصلها، فإن كانت الفواصل متعادلة فهو التوازن، وإن كانت متماثلة فهو السجع، مثال الأول: ((**وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ • وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**))[29]. ومثال الآخر: ((**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ • وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ • يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ**))[30].

فبين المستبين والمستقيم تعادل، وبين نعيم وجحيم تماثل. إذن الازدواج على إطلاقه، والسجع على تقييده يؤلفان الموسيقى في الأسلوب البليغ، منذ كان للعرب ذوق، وللعربية أدب، فليس الحال فيهما هي الحال في سائر الأنواع البديعية التي نشأت في الحضارة ونمت بالترف، وسمجت بالفضول وفسدت بالتكلف. فالذين ينكرون على من يحسنون التأليف بين الأصوات والمزاوجة بين الكلمات والمجانسة بين الفواصل إنما ينكرون جمال البلاغة في دهر العروبة كله"[31].

وتتجلى شاعرية اللغة العربية في جانب ثر، وهو مجال الإعراب، أي العبارات في حركات الإعراب، "وهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة هو آية السليقة الفنيّة، في التراكيب العربية المفيدة، توافرت لها مفهومة بعد أن توافرت لها حروفا تجمع مخارج النطق الإنساني على أفصحها وأوفاها وبعد أن توافرت لها مفردات واضحة ترتبط فيها المعاني بضوابط الحركات والأوزان. وهذه الحركات والعلامات تجري مجرى الأصوات الموسيقية وتستقر في مواضعها المقدّرة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع"[32].

والإيقاع الموسيقي منتشر في القرآن الكريم جميعه، فحيثما تلاه المؤمن أحسّ بالإيقاع الداخلي في سياقه، ولكنه يبرز بروزا واضحا في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير، والتشخيص بصفة عامة، ويتوارى قليلا أو كثيرا في السور الطوال، ومن ذلك قول الله تعالى: ((**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى • مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى • وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى • إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى • عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى • ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى • وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى • ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى • فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى • فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى • مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى • أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى • وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى • عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى • عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى • إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا**

---

[29] سورة الصافات، من الآية: [117-118].

[30] سورة الانفطار، من الآية: [13-14].

[31] دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة – القاهرة (ص 114).

[32] اللغة الشاعرة، مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، عباس محمود العقاد، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1960م الطبعة الأولى (ص 20-21).

يَغْشَى • مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى • لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى • أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى • وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى • أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى • تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى))[33].

ويعلّق الأستاذ سيد قطب على هذه الآيات ذاهبا إلى أن هذا الإيقاع الموسيقي متناسق متزن في القرآن الكريم، وهذا التناسق والاتزان فيه ألوان مختلفة؛ منها أن يكون إيقاعا ناتجا عن فواصل متساوية في الوزن تقريبا متحدة في حرف التقفية تماما، ذات إيقاع موسيقي متحد، ويكون اختيار الألفاظ تبعا لهذا الإيقاع، بحيث إذا حذف لفظ منها اختلت القافية، وتأثر الإيقاع. مثال ذلك، الإيقاع الموسيقي لسورة النجم، وهو هنا متوسط الزمن تبعا لتوسط الجملة الموسيقية في الطول، متحد تبعا لتوحد الأسلوب الموسيقى، مسترسل الروي كجو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي.

واختيرت الألفاظ لتناسب الإيقاع في قوله: ((أفرأيتم اللأت والعزى • ومناة الثالثة الأخرى)) فلو أنك قلت: أفرأيتم اللأت والعزى ومناة الثالثة، لاختلت القافية ولتأثر الإيقاع. كذلك في قوله: ((لكم الذكر وله الأنثى • تلك إذن قسمة ضيزى))، فلو قلت: ألكم الذكر وله الأنثى تلك قسمة ضيزى ... لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة إذن، فكلمتا (الأخرى)، و(إذن) جاءتا لتؤديا معنى في السياق، ولتؤديا تناسبا في الإيقاع في وقت واحد[34].

ومن ثم يذهب الأستاذ سيد قطب في كتابه "في ظلال القرآن" إلى أن في القرآن الكريم إيقاعا موسيقيا جذّابا، وهذا الإيقاع يتألف من عدّة عناصر "من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة، ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة، ومن اتجاهات المد في الكلمات، ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات، ومن حرف الفاصلة ذاته. ثم يؤكد ما ذهب إليه قائلا: "ولأن القرآن الكريم إعجاز بياني كامل، ويتمثل فيه الأسلوب الفني المعجز، فلا بدّ من أن يوجد فيه الإيقاع الموسيقي المعجز. ولا ضرر من نسبة الجرس والإيقاع أو الموسيقى إلى أسلوب القرآن، وأن نلحظ وجودها فيه وأن نبينها للناس كافة؛ لأن القرآن الكريم يسير على سنن العربية وأساليبها في التعبير. والموسيقى تكمن في الخطاب الأسلوبي للقرآن الكريم، وهي ميزة تميّزه عن الاستخدام اللغوي العربي المعتاد، وهذا الجانب له خاصيته التي جعلت العرب يقفون أمامه حيرى، والإيقاع الموسيقي فيه يتألف من عدة عناصر:

1- من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة.

2- ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة.

---

(33) سورة النجم، من الآية: [1-22].

(34) التصوير الفني، سيد قطب، دار المعارف – مصر الطبعة الثانية (ص 86-87).

3- ومن اتجاهات المد في الكلمات.

4- ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات.

5- ومن حرف الفاصلة ذاته"[35] .

ويرى الدكتور عبد الحميد حسن: "كل هذه العوامل الصوتية من مخارج الحروف، وصفاتها وحركاتها، وتتابع هذه الحركات أو تفرقها، تجعل للكلمة قوة موسيقية خاصة، ورنينا يطبعها بطابع خاص"[36].

ونخرج من هذا، أن الإيقاع الموسيقي يرتبط بالتحليل الأسلوبي، وهذا الثاني يساعد على فهم وتذوق الخطاب المعرفي في القرآن الكريم، فالنص القرآني يتكون من أسلوب، وخطاب معرفي، وفي هاتين الحالتين، نحتاج إلى التحليل الأسلوبي الدقيق للكشف عن معاني القرآن الكريم ودلالالته الخفية.

المبحث الرابع: دقة التعبير في القرآن الكريم

كان من الأهداف التي سعى إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظريته في النظم القرآني هي شرح ما تميّزت به أساليب القرآن الكريم من دقة وفنيّة وإبداعيّة فاقت طوق البشر.

ومن أمثلة هذا النمط القرآني المبدع الذي تحدث عنها الإمام عبد القاهر، قول الله تعالى: ((**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ**))[37] حيث قال: "ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسنا وروعة، ومأخذا من القلوب، أنت لا تجد شيئا منه إن أنت أخرّت، فقلت: وجعلوا الجن شركاء لله، وأنت ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة، والمنظر الرائق، والحسن الباهر إلى الشيء الغفل الذي لا تخرج منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل وسبب ذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير، بيان هو أن نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن.

وإذا تأخر فقيل: جعلوا الجن شركاء لله، لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شئ أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، أما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه، وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن "شركاء" مفعول أول لجعل و"لله" في موضع المفعول الثاني، ويكون "الجن" على كلام ثان، وعلى تقدير كأنه قيل: فمن جعلوا شركاء لله تعالى؟ فقيل الجن.

---

[35] في ظلال القرآن، سيد قطب، طبعة دار إحياء الكتب العربية – مصر الطبعة الثانية (ج 4 ص 2039).

[36] الأصول الفنيّة للأدب، عبد الحميد حسن، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1964م الطبعة الثانية (ص 40).

[37] سورة الأنعام، من الآية: [100].

وإذا كان التقدير في "شركاء" أنه مفعول أول و"لله" في موضع المفعول الثاني وقع الإنكار على كون شركاء لله تعالى على الإطلاق من غير اختصاص شئ دون شئ وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّة غير مجراة على شئ كان الذي يعلق بها من النفي عاما في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة.

فإذا قلت: ما في الدار كريم: كنت نفيت الكينونة في الدار عن كل من يكون الكرم صفة له وحكم الإنكار أبدا حكم النفي. وإذا أخر فقيل: وجعلوا الجن شركاء لله. كان "الجن" مفعول أول، والشركاء مفعولاً ثانيا، وإذا كان كذلك كان الشركاء مخصوصا غير مطلق من حيث كان محالا أن يجري خبرا على الجن ثم يكون عاما فيهم وفي غيرهم، وإذا كان كذلك احتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى الجن خصوصاً أن يكون شركاء دون غيرهم، جل الله أن يكون له شريك، وشبيه بحال"[38].

وبالإضافة لما ذكر الإمام الجرجاني، فقد أفاد تقديم لفظ الجلالة في الآية، وتأخير لفظ الجن، الأمور التالية:

1- إثبات الوحدانية لله وحده.

2- انفراده بالعبادة والاستعانة.

3- إنكار الشراكة في عبادته.

4- نفي وإنكار عبادة الجن معه.

5- عدم الاستعانة بالجن.

6- اختصاصه بالتبجيل والاحترام والتقديس.

وتتجلى الوحدانية لله عزّ وجلّ في تقديم لفظ الجلالة، فالمقدم هو المختص بالعبادة دون أدنى شك. أمّا عن حقيقة انفراده بالعبادة والاستعانة فتظهر في إضافة حرف اللام للفظ الجلالة والتي تفيد التمليك. وتتبيّن قضية إنكار الشراكة في عبادته، في فصل لفظ الجن عن أسم الجلالة، وإبعاده في نهاية الآية، حيث لا تجد عطفا بين لفظ الجلالة والجن. والأسلوب الإنكاري المستوحى من الآية ينكر وينفي عبادة الجن معه، وعدم الاستعانة بهم. أمّا عن دلالة التبجيل والتقديس، فواضحة من صيغ التقديم والتمليك والنفي لعبادة الجن مع الله عزّ وجلّ.

---

[38] دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني (ص 192-193).

المبحث الخامس: دقة الوصل بحروف العطف

قال الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ((**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ • وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ • وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ • وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**))(39).

ذكر ابن الأثير، وتبعه العلوي أن عطف السقي على الإطعام بالواو إرادة الجمع بينهما، وعطف الشفاء على المرض بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما، ثم عطف الثالث بثّم؛ لأن الإحياء بعد الموت إنما يكون بمهلة وتراخ(40). أما قول ابن الأثير والعلوي: إن تقديم الإطعام على الإسقاء، والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حق النظم، فلا يخلو من مجازفة؛ لأن الاستعمال القرآني قدّم الإطعام على الإسقاء، والأكل على الشرب، والعلة أنه ترتيب بالطبع والمنطق والأهمية والوظيفة الحيوية، ففكرة الجواز لا تناسب الموقف في هذا الأمر.

وتعبير الإمام العلوي بأن مراعاة حسن النظم والمشاكلة أوجب ذلك يلم بشيء من أسرار التقديم هنا ولا يستوفيها، ثم إن قول ابن الأثير إن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما، يثير الريبة في موقف ابن الأثير الذي يشن حربا على الإغراق العقلي والفلسفي في معالجة البلاغة، ثم ينسى هو ذلك أحياناً، وربما لم يستطع أن يتخلص بالتأكيد من ثقافة عصره، ولذا عدّل العلوي هذا التعبير، ونقل عن الرازي ما يفيد مع تعقيب الشفاء للمرض، التنبيه على عظم المنّة بالعافية بعد المرض من غير تراخ(41).

والواقع هذا مقام ثناء على الله تعالى بتعداد نعمه التي توجب عبادته تعالى، ثم تمهيدا للدعاء الضارع، ولذا أسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه حسن أدب وإيماء إلى ما في التفريط في المأكل والمشرب من أسباب للمرض.

وأرى أن إسناد الشفاء إلى ربه بضمير الفصل بالفاء أملا في الشفاء الحسن المحبوب، وإسراعا بتعديد النعم، وثناء على الله باقتداره على الشفاء العاجل، فالفاء لم تفد تعقب الشفاء للمرض فحسب، بل أفادت مع أن المرض قصير، تتدارك رحمة الله بشفاء سريع لا يطول بعدمه المرض.

والواضح من آيات سورة الشعراء هذه، ارتباط التغاير في حروف العطف بالترتيب الزمني طولا وقصرا، واستخدام نماذج من حروف العطف بدقة متناهية، وحكمة بالغة، لا يدركها إلا أولي التفكر والتبصر والتأمل في الأسلوب القرآني.

---

(39) سورة الشعراء، من الآية: [79-83].

(40) المثل السائر، ابن الأثير (ج 2 ص 26)؛ والطراز، العلوي (ج 2 ص 42).

(41) التفسير الكبير، الرازي (ج 24 ص 145).

ولا يمكن في مثل هذه الآية أن يتبدل أو يتغيّر حرف العطف بآخر، فإذا حدث هذا أختل المعنى، وغمض الأسلوب، وتعقدت الفكرة، ومن ثم كان استعمال هذه الحروف العاطفة، والتي وردت في الآية الكريمة قمة في الإبداع الأسلوبي، أو الأسلوب الإبداعي في القرآن الكريم وهذا الترتيب التزمه القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته.

ونقف قليلا عند ضمير التأكيد في الآية الكريمة، وما ذهب إليه الشيخ محمد متولي الشعراوي في هذا الشأن، فالله سبحانه وتعالى يخاطب دائما ملكات النفس البشرية، ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين، بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات، فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطي معنى جديدا، أو يفهم شيئا جديدا، وهذه الدقة الهائلة، تجدها موجودة بكثرة في القرآن الكريم، مثلاً إبراهيم عليه السلام يقول: ((**فإنهم عدو لي إلا ربّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين**))[42].

هنا نتوقف لنسأل: لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام: (هو) الذي خلقني فهو يهدين، وقال: ((الذي خلقني فهو يهدين))؛ لأن الخلق ليس محتاجا إلى تأكيد، فليس هناك إنسان مهما كبر وعظم وحكم الدنيا كلها، يستطيع أن يدعي أنه يخلق إنسانا، وإلا فسنطلب منه أن يفعل ذلك، وسيعجز، إذن فالخلق لم يدَّعه أحد، ولذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد، إنما الهداية هناك مئات الألوف مما يدعون أنهم يهدون الناس، بعضهم وضع مناهج ضد الدين، والمهم أنهم جميعا يدعون أنهم يريدون هداية البشر، وكل إنسان يضع نظاما يخضع لأمره وهواه، ويدعي أنه للهداية.

ومن هنا كان لا بدّ من التأكيد على أن الهدي من الله وحده، إن الحق والطريق المستقيم من الله وحده، وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لا بدّ من وضعه، وأن الضمير في الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكر به، فالخلق صفة من صفات الله، لا ينازعه فيها أحد، فهو ليس محتاجا إلى تأكيد، وإنما الهدى فيه ادعاءات من الناس وهناك تأتي كلمة (هو) ضرورة، ثم تأتي بعد ذلك في: ((والذي هو يطعمني ويسقين))؛ لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب، فهناك ادعاءات كثيرة في الرزق.

ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله تعالى كلمة: ((هو يطعمني ويسقين))، ويقول أيضا: ((وإذا مرضت فهو يشفين))، ذلك إننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى. ثم بعد ذلك نأتي إلى عدم وجود كلمة هو في قوله تعالى: ((والذي يميتني ثم يحيين))، ولم يقل: والذي (هو) يميتني ثم (هو) يحيين؛ لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله في مسألة الموت والحياة، ولا يدعيها لنفسه، ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى

---

[42] سورة الشعراء، من الآية: [77].

الحال.

وهكذا نرى في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتي بالضمير فيضعه مرّة، ويحذفه مرّة؛ لأن المقام يقتضي ذلك، ولأن دقّة التعبير في القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع في المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة، سواء من ناحية الإضافة أو الحذف، أو اختيار الكلمات، ولو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة (هو) في كل الآيات التي ذكرناها، أو حذف كلمة (هو) من كل الآيات التي ذكرناها، لما تنبه لذلك معظم الناس لمعنى الحديث على أساس أنه كلام بشر، ولكنه كلام الله سبحانه[43].

ولا نريد أن نكثر، فالمقام يطول، وإنما أتينا بهذه النماذج على سبيل المثال لا الحصر، ومن يريد أن يستزيد من هذا الفيض الرباني، فكتاب الله شاخص أمامه، فحسبه به.

الخاتمة

نستطيع أن نخلص إلى النتائج التاليّة:

أولا: إن هذه الطريقة رائدة، ندعو أن يتمثلها دارسو القرآن، لما لها من أثر نفسي يغذي قوى النفس التي هي في حاجة لفهم دقائق كتاب الله عزّ وجلّ.

ثانيا: إن المعاني الخفية، أو المعاني الثانية التي تكمن خلف الأسلوب، أو الإشارات البلاغيّة لا يمكن أدراكها إلا عن طريق فهم أساليب اللغة العربيّة.

ثالثا: إن الطريقة التصويرية الرائعة، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة في القرآن الكريم حينما يمتلأها الخيال في إطار من الطبيعة الجاذبة، إنما يكون لغزه في فك هذا الإطار البلاغي ودلالاته وإشاراته.

[43] معجزة القرآن، الشعراوي (ص 50-51).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ط. حجازي – القاهرة – 1360هـ.
- الأصول الفنيّة للأدب، عبد الحميد حسن، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1964م الطبعة الثانية.
- الإعجاز البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف – القاهرة – 1971م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي – القاهرة الطبعة الأولى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- التصوير الفني، سيد قطب، دار المعارف – مصر الطبعة الثانية.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة – القاهرة.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة – بيروت – 1419هـ – 1998م الطبعة الثانية، تصحيح أصله الأستاذ الإمام محمد عبده والأستاذ الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي.
- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فتحي عامر، المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة – القاهرة – 1975م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، طبعة دار إحياء الكتب العربية – مصر الطبعة الثانية.
- الكشاف، الزمخشري – القاهرة الطبعة الثانية.
- اللغة الشاعرة، مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، عباس محمود العقاد، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – 1960م الطبعة الأولى.
- النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة الأولى.
- وجوه الإعجاز في الخطاب الأسلوبي والمعرفي للقرآن الكريم، نصرالدين إبراهيم أحمد، مركز البحوث، الجامعة الإسلاميّة العالميّة – ماليزيا – 2005م الطبعة الثانية.